الردع الصاروخي الفلسطيني بين التفرد النوعي وتوازن الرعب الإستراتيجي

أ.م.د.سماح مهدي صالح العلياوي *

باحث من العراق

*كلية الامام جعفر الصادق/ قسم القانون

Samahmehdi2@gmail.com

إنّ «الـردع» (Deterrence) قديم بقدم الإنسان فهو دلالة على القوّة الّتي لا تستخدم أحياناً، فمنذُ بداية تاريخ العلاقات بين الأمم بدأ ظهور الردع حيث يقدر المعتدي بين مدى المجازفة وبين الفائدة الّتي سيحصل عليها، أو التلويح باستخدام القدرة التقليدية لإيقاع التأثير المطلوب إزاء المقابل، ولتحقيق الأهداف المطلوبة الّتي يسعى إليها الرادع، وقد ورد مُصطلح «الردع» في مختار الصحاح بمعنى الكف والزجر، فيُقال: ردعه عن الشيء «فارتدع»، أيّ كفه فكف، وبابه قطع، أمّا معجم اللّغة العربيّة فقد جاء فيه: ردع، يردع ردعاً، فهو رادع والمفعول مردوع، مثلاً: ردع الوالد ولده عن الكذب، أيّ زجره وكفة ومنعه عنه. وقد استخدم العرب المسلمين الردع على نطاق واسع، إذ أشار القرآن الكريم إلى أهميّة الردع حيث يقول اللّله سبحانه وتعالى بسم االلّه الرحمن الرحيم: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» سورة الأنفال الآية (60).

وفي الحديث النبوي الشريف أشار الرسول الكريم «ص» قائلاً: «**نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**»، ويرمي الردع عند المسلمين إلى تكوين قناعة نفسية عند الخصم بعدم جدوى العدوان.

ويعرف الجنرال «أندريه بوفر» (**Andre Boufer**) الردع بأنه: «**منع دولة معادية من اتخاذ قرار باستخدام أسلحتها، أو بصورة أعم منعها من العمل أو الرد إزاء أيّ موقف معين باتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات الّتي تشكل تهديداً كافياً حيالها**»، ويذكر الجنرال «**إذا أردت السلم فاستعد للحرب**»، لهذا تحاول الدُّوَل تطوير قدراتها العسكرية والإتيان بسلاح يكون كفيل بحمايتها لتكون قادرة على صدَّ أيّ تهديد يخل بأمنها القومي والحفاظ على هيبتها وقوتها، لذلك توصلت

الدُّوَل الكُبْرَى إلى إنتاج السِّلاح النووي كونه الأداة الفعالة للردع.

وعرفت الموسوعة العسكرية البريطانية الردع بأنه: «**التدابير الّتي تعدّها وتستخدمها دولة واحدة أو مجموعة من الدُّوَل بغية عدم تشجيع الأعمال العدائية الّتي يُمكن أن تشنها دولة معادية أو مجموعة من الدُّوَل، وذلك عن طريق بث الذعر لدى الطرف الآخر إلى حدٍّ يصبح فيه هذا الذعر محتمل بالنسبة للطرف الآخر**». أمَّا قاموس الأمن الدَّوْلي فقد عرف الردع بأنه: «**إستراتيجية نفسية، الهدف منها صرف طرف ثان عن الإقدام على تصرف ما بإقناعه بأن تكاليف ذلك التصرف تفوُّقً فوائده، وهو ينطوي على التهديد بالأذى وليس على تنفيذه ، إلاَّ أَنّ الردع يخفق إذا ما دعت الضرورة إلى تنفيذ التهديد**».

إستراتيجية نفسية، الهدف منها صرف طرف ثانٍ عن الإقدام على تصرف ما

إنَّ الردع هو امتلاك القدرة على منع الخصم من الفعل أو ردة الفعل، أو التهديد الّذي يهدف إلى ردع دولة ما عن العدوان، إذ لا تتراجع عن الاعتداء، لأن نتائج العدوان تكون مدمرة للطرف المعتدي، وهو وضع يوجه فيه الطرف الرادع للطرف المراد ردعه تهديداً بإلحاق الأذى بمصالحه في حال قيام الطرف المراد ردعه بعمل يُعدُّ ضاراً بمصالح الطرف الرادع، وهذا الضرر إمَّا أن يؤدي إلى تجميد العمل يُعرف بـ«الردع بالمنع» (**Deterrence by Ban**)، أو أن يجعل الفائدة المترتبة على العمل لا تسوغ الضرر الّذي ينتج عن العمل الانتقامي الّذي سوف يقوم به الطرف الرادع ضدَّ الطرف المراد يعرف بـ«الردع بالعقوبة» (**deterrence by punishment**).

وقد أصبح الردع يعبر عن توعد الخصم المفترض بضربة عقابية موجعة في حال حدوث اعتداء من جانبه، وهو الردع بالترهيب أو التخويف، أيّ أنه عملية ترهيب الخصم واخافته عِبْرَ عدد من التهديدات لذلك اتجه الردع نحو مفهوم القوَّة، والتلويح بها دون استخدامها، حيث يرى العلم الأميركي «توماس كرومبي شيلينغ» (**Thomas Crombie Schilling**) بأنه: «**إجراءات لمنع الحروب بدلاً من تنفيذها باستخدام الوسائل المادية، إذ أنّ قدرة الردع تعزَّز من قدرة الدفاع لدى الرادع**». ومن ثمَّ أن الردع لا ينطوي على الاستخدام الفعلي للقوَّة، وإنَّما التهديد باستخدام القوَّة، وتوفير القدرة الّتي تتيح إرغام الخصم على التراجع عن تصرف معين أو إحباط الأهداف الّتي يتوخاها من ورائه تحت التهديد بإلحاق خسائر جسيمة به تفوُّق المنافع الّتي يتوقعها من وراء الإقدام على مثل هذه التصرفات، وهي حركة نفسية ذات أبعاد سياسيَّة تهدف إلى التأثير على خيارات الطرف

المصاب، وعلى نحو يجعله يتنازل عن خياره العسكري. ويرى بعض الفقهاء أن الردع وسيلة لتحقيق السَّلام أكثر من إشعال الحرب، وليس بالضرورة تكون النيات لإرغام الخصوم، بل للتقليل من أهميَّة هدف سامٍ.

وينقسم الردع بشكل عام من حيث الهدف على قسمين، هما: «الردع الدفاعي» (**Defensive Deterrence**) إذا كان الهدف منه منع العدو من القيام بعمل معادٍ غير مرغوب به، كما يهدف إلى الحفاظ على السِّلم، وتثبيت الوضع الراهن في منطقة مُحدِّدة، ويعمل على منع الأعمال المعادية الّتي تنوى الدُّوَل القيام بها، ويؤدي إلى حصر النزاعات والتخفيف من حدتها. أمَّا «الردع الهجومي» (**Offensive Deterrence**)، إذا كان الهدف منه منع الخصم من الوقوف ضد منافعه، إذ يشكل العمل على منع العدو من المقاومة، وإجباره على تغيير الوضع الراهن أساس الردع الهجومي. ومن الناحية الشمولية فأن الردع ينقسم على قسمين أساسيين، هما: «الردع الشامل» (**comprehensive deterrence**)، و»الردع المحدود» (**Limited Deterrence**)، وهنا يكون الاختلاف حسب طبيعة الهدف المراد تحقيقه، فإن كانت قِيَمة الهدف عالية فأن تحديد طبيعة استخدام القوَّة المتاحة يكون عالياً، ويمس وجود الدَّولة، ويختلف في حال كون قِيمة الهدف هامشية، ولا تستحق المجازفة.

وللردع صورتين، هما: «الردع المباشر» (**direct deterrence**) قيام دولة بتهديد دولة أخرى لمنعها من القيام بسلوك يتعارض مع مصلحة الدَّولة الرادعة. أمَّا «الردع غير المباشر» (**indirect deterrence**)، فهو بين الطرفين المتنازعين أو لمصلحة طرف ثالث. وينقسم الردع من حيث القوَّة الرادعة على قسمين، هما: «الردع التقليدي» (**Traditional Deterrence**) حيث يكون للأسلحة التقليدية دور أساسي في أدوات الردع التقليدية، مثل: الأهميَّة الجيوسياسية للدَّولة. أمَّا «الردع النووي» (**Nuclear Deterrent**) فيعتمد على طبيعة الأسلحة الّتي تمتلكها الأطراف الدَّوْلية، وعلى قدرتها التدميرية عِبَرَ امتلاك الأسلحة غير التقليدية، مثل: الكيمياوية، والجرثومية والنيتروجينية، إذ يجعل أيّ دولة تفكر كثيراً قبل الاعتداء على الدَّولة الّتي تملك هذه الأنواع من الأسلحة. وللردع أشكال مختلفة، إذ يميز بعض الفقهاء بين «الردع الشَّرعي» (**legitimate deterrence**)، إذا كان الهدف منه منع العدو من العدوان، وبين «الردع العدواني» (**Aggressive Deterrence**)، إذا كان الهدف منه استخدام العدوان على الطرف الآخر. وهناك من يميز بين «الردع الأحادي» (**Nnilateral Deterrence**) إذا استطاع أحد الأطراف تهديد طرف معين يفتقر إلى القدرة على الردع، أمَّا «الردع

المتبادل» **(Mutual Deterrence)** إذا امتلك طرفي النزاع القدرة على التهديد المتبادل.

ومن أجل أن يكون الردع فعالاً يجب أن يستند إلى مجموعة من المتطلبات، وهي: المصداقية أيّ إقناع الخصم بامتلاك الوسيلة والإرادة لتنفيذ التهديد والوعيد، وإيصال معلومات ثابتة وغير متناقضة للخصم، فضلاً عن ضرورة توفر الأدوات والوسائل اللازمة لإيصال رسالة إلى الخصم بالقدرة على ردعه، كذلك ينبغي على الطرف الرادع أن يوضح بلا غموض حجم الأضرار الّتي قد تلحق به، فكلما ازداد الغموض في المعلومات، كلما ازدادت احتمالات التشويه بين قصد المرسل للرسالة، والمعنى الّذي يفسره الخصم حسب تصوره، لهذا يجب التفسير من قِبَلِ الطرف الرادع عِبَرَ قنوات إعلامية واضحة. ولعلَّ الأسباب الّتي تجعل من الردع غير قابل لعدم الاعتماد والثقة فهي عدم كفاية القدرات العسكرية للطرف الرادع، وأن تكون التهديدات المرسلة غير واضحة، كذلك مدى ضعف أو قوَّة القوى السِّياسيَّة الحاكمة للطرف الرداع، فضلاً عن قوَّة أو ضعف القوَّات المسلّحة استراتيجياً.

الردع الصاروخي فهو استراتيجية أميركية بالدرجة الأولى

وفيما يتعلق بالردع الصاروخي فهو استراتيجية أميركية بالدرجة الأولى، إذ توصلت الولايات المتَّحدة بعد عام 1957، إلى إيجاد منظومة دفاعية ضدَّ التهديد السُّوفياتي، وهي منظومة دفاعية ضدَّ القذائف الباليستيّة، ومنظومة تعتمد على تطوير قابلية المقذوفات الأميركية لاختراق المنظومة الدفاعية السوفياتية، ومنظومة تعتمد على تمكين الولايات المتَّحدة الأميركية من توجيه الضربة الأولى، ثمَّ أعلن الرئيس الأميركي «رونالد ريغان» **(Ronald Reagan)** عن مبادرة «الدفاع الإستراتيجي» **(Strategic Defense)** أو «حرب النجوم» **(Star Wars)** في عام 1983، وتقوم المبادرة على تسليح الفضاء الخارجي بأسلحة تعمل بتقنية فيزيائية متطوُّرة، بغية الوصول إلى إمكانية تحديد مواقع الأسلحة الإستراتيجية بشكل دقيق، وتدمير الصواريخ المقذوفة وهي في مساراتها العملية، ولتبين الأقمار العسكرية المعادية وتدميرها، وتقوم على الاستطلاع والابلاغ والتصدي، وتعتمد على تِكْنُولُوجيا الليزر، وتِكْنُولُوجيا الفضاء، والتقدُّم في عملية الرصد الفلكي من الفَضاء، وتطوير استخدام الحواس الإلكترونية، والتقدُّم في توجيه الصواريخ بنظم إلكترونية، لأن أحدى الوسائل الهامة الّتي تطبق هي استخدام دقة التوجيه برصد الهجوم من المستعمرات الفضائية لتحقيق دقة اعتراض الصواريخ المعادية، إذ يجب إصابة هدف من عشرة سنتمترات على مسافة ألف كيلو متر وبسرعة (5) كم في الثانية.

وفيما يتعلق بالردع الصاروخي الفلسطيني فمنذُ الانتفاضة الفلسطينية الثانية أو انتفاضة الأقصى في 28 أيلول/سبتمبر 2000، والّتي توقفت بعد اتِّفاق الهدنة الّذي عقد في قمَّة شرم الشيخ في شباط/فبراير 2005، والّذي جمع الرئيس الفلسطيني المنتخب «محمود عباس»، ورئيس الوزراء الإسرائيلي «أرئيل شارون» **(Ariel Sharon)**، لكن الفصائل الفلسطينية خاصة حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس» بقيت مستمرة في تطوير أدوات وأساليب جديدة في القتال، لا سيّما الإمكانات الصاروخية القادرة على اختراق الأجواء الإسرائيليَّة في خطوة عملياتية تصيب العمق الإستراتيجي للجيش الإسرائيلي، وتصب في مصلحة القضية الفلسطينية، إذ قام الجيش الإسرائيلي بالعدوان على قطاع غزة في كانون الأول/ديسمبر 2008، باسم عملية «**الرصاص المصبوب**»، فيما أطلقت عليها «حماس» اسم «**حرب الفرقان**» فبعد مرور ثمانية أيام على القصف اتَّخذت الحكومة الإسرائيليَّة قراراً بشن عملية عسكرية برية على قطاع غزة، بمشاركة سلاح المدفعية وجنود المشاة والدبابات، واستخدمت إسرائيل أسلحة غير تقليدية ضدَّ الفلسطينيين العزل كان أبرزها قنابل الفسفور الأبيض، واليورانيوم المخفف، وأعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك «أيهود أولمرت» **(Ehud Olmert)**، عن وقف إطلاق النار من جانب واحد دون الانسحاب من قطاع غزة، لكن حركة «حماس» دكت معاقل الجيش الإسرائيلي بقدرات صاروخية منفردة.

عملية "الرصاص المصبوب"، فيما أطلقت عليها "حماس" اسم "حرب الفرقان

وبعد اغتيال إسرائيل قائد كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة حماس «أحمد الجعبري» تنفيذاً لقرار اللّجنة الوزارية المصغرة للشؤون الأمنيَّة الإسرائيليَّة، والّذي اتخذته سراً على الرغم من التوصل إلى مسودة اتِّفاق تهدئة مع المقاومة بوساطة مصرية، فقد شنت إسرائيل حرباً ثانية على قطاع غزة في تشرين الثاني/نوفمبر 2012، أسمتها «**عامود السحاب**»، فيما أسمتها حركة حماس «**حجارة السجيل**»، وأشار الجيش الإسرائيلي إنه استهدف (980) منصة صاروخية موجهة تحت الأرض، وهو دليل على أن فصائل المقاومة تمكنت من زيادة إرباك المنظومة الأمنيَّة الإسرائيليَّة عِبرَ تطوير المنظومة الصاروخية المباغتة في السرعة والدقة والمرونة.

كما شنت إسرائيل حربها الثالثة على قطاع غزة في تموز/يوليو 2014، أسمتها «**الجرف الصامد**»، فيما أطلقت عليها حركة «حماس» اسم «**العصف المأكول**»، فقد شنت القوّات الإسرائيليَّة قرابة (60) ألفاً و(664) غارة على قطاع غزة جواً وبراً وبحراً نتيجة لعدم قدرت القوّات الإسرائيليَّة على مواجهة القدرات الصاروخية

الّتي تمتلكها حركة «حماس»، كما أعلنت كتائب القسام الجناح المسلَّح لحركة «حماس» في تموز/يوليو2014، عن أسرها الجندي الإسرائيلي «شاؤول آرون» **(Shaul Aaron)**، خلال تصديها لتوغُّل بري للجيش الإسرائيلي شرق مدينة غزة، كما اتهمت إسرائيل حركة «حماس» باحتجاز جثة ضابط آخر يدعى «هدار غولدن» **(Hadar Golden)** قُتل في اشتباك مسلح شرقي مدينة رفح، وهو ما لم تؤكِّده الحركة أو تنفه، وقد توصلت إسرائيل والفصائل الفلسطينية في قطاع غزة في آب/أغسطس 2014، برعاية مصرية إلى هدنة أنهت حرب الـ «51» يوماً، وتضمَّنت بنود الهدنة استئناف المفاوضات الفلسطينية الإسرائيليَّة غير المباشرة في غضون شهر واحد من بدء سريان وقف إطلاق النار.

كما بدأت الاشتباكات بين الجيش الإسرائيلي وحركة الجهاد الإسلاميَّة في فلسطين في تشرين الثاني/نوفمبر 2019، وذلك في أعقاب اغتيال القائد الميداني لسرايا القدس «بهاء أبو العطا» في غزة على يدِ طائرات الاحتلال الّتي استهدفت منزله بشكلٍ مباشر، وكذلك محاولة قتل القِيادي في حركة الجهاد «أكرم العجوري» الّذي كان حينها في دمشق، وقد ردّت الجهاد عِبرَ ذراعها العسكري سرايا القُدس على الاستهداف الإسرائيلي لقادتها عِبرَ إطلاقِ عددٍ من الصواريخ صوبَ المستوطنات الإسرائيليَّة بما في ذلك صواريخ طويلَة المَدى أُطلقت باتجاهِ «تل أبيب».

لكن التطوُّر النوعي الجديد في منظومة الردع الفلسطينية الّتي تمتلكها الفصائل المقاومة حدث مع العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في أيار/مايو 2021، وبدأت شرارة المواجهة بالاعتداء على عشرات الفلسطينيين، ومحاولة منعهم من التواجد في ساحة «**باب العامود**» في المسجد الأقصى، واشتدت مع دعوة جماعات إسرائيليَّة متطرِّفة إلى حرق العرب، والتداعي لاقتحام واسع للمسجد الأقصى، وقد أصدرت كتائب القسام الجناح المسلَّح لحركة حماس بياناً في 23 أبريل/نيسان/أبريل 2021، تحذر إسرائيل من مغبة الاستمرار في انتهاكاتها بحق المقدسيين، كما اطلقت فصائل فلسطينية في غزة صاروخاً على مستوطنة إسرائيليَّة قريبة من القطاع، رداً على انتهاكات الاحتلال في القدس، وجرت مواجهات مع الاحتلال على خلفية محاولة إخلاء عائلات فلسطينية من بيوتها في حي «**الشيخ جراح**» وتسليمها للمستوطنين في 7 أيار/مايو 2021، وقد اقتحمت قوّات الاحتلال الإسرائيلي المسجد الأقصى مرتين وأوقعت أكثر من (350) إصابة في10 أيار/مايو 2021.

لذلك فأن غرفة العمليات المشتركة للفصائل امهلت إسرائيل حتى السادس مساء للانسحاب من المسجد الأقصى ووقف اعتداءاتها على المقدسيين، وعليه قصفت الفصائل الفلسطينية مدناً إسرائيليَّة بالصواريخ، وقد أعلنت الولايات المتَّحدة أنها سوف ترسل مبعوثاً إلى المنطقة، كما اعربت روسيا عن قلقها الشديد إزاء التطوُّرات في القدس وغزة، وأكَّد الرئيس الفلسطيني «محمود عباس» أن القدس خط أحمر، ولا أمن ولا استقرار إلاَّ بتحريرها كاملة، ودعا وزير الخارجية الأميركي «أنتوني بلينكن» **(Anthony Blinken)** إسرائيل إلى بذل ما بوسعها لتجنب سقوط ضحايا مدنيين، وأشار وزير الدفاع الأميركي «لويد أوستن» **(Lloyd Austin)** عن دعم بلاده الراسخ لحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها، لذلك أكدت الرئاسة الفلسطينية أن صمت الإدارة الأميركية أدَّى إلى مجزرة في غزة والضفة والقدس عن طريق القصف بعد عجز الجيش الإسرائيلي عن صدَّ الهجوم الصاروخي الفلسطيني، وعلى هذا الأساس أجرى الرئيس الأميركي «جو بايدن» **(Joe Biden)** مباحثات مع رئيس الوزراء الإسرائيلي «بنيامين نتنياهو» **(Benjamin Netanyahu)** حول العمليات العسكرية، كما أجرى الرئيس الأميركي اتصالاً مع الرئيس الفلسطيني «محمود عباس»، كما دعت الصين وتونس والنرويج لوقف الاعتداءات واحترام الوضع القائم في القدس، كما دعا (28) عضواً ديمقراطياً بمجلس الشيوخ الأميركي لوقف العنف، وقد عقد اتِّفاق وقف إطلاق النار متبادل ومتزامن بوساطة مصرية في 20 أيار/مايو 2021.

هذه الحرب افشلت أكبر تجمع سنوي للمستوطنين في "باب العامود

ولعلَّ هذه الحرب افشلت أكبر تجمع سنوي للمستوطنين في «**باب العامود**» بعد دوي صافرات الإنذار، وفشل اقتحام الأقصى الّذي دعا له المستوطنون، كما أعلنت كتائب القسام عن دخول صاروخ عياش (250) للخدمة ليصل أقصى نقطة في إسرائيل من شمالها إلى جنوبها، حيث أطلقت الفصائل الفلسطينية نحو (4) آلاف صاروخ على إسرائيل الّتي لم تتمكن من صدَّ الهجمات الصاروخية الفلسطينية على الرغم من التبجح بـ «**القبة الحديدة**»، ولم تتمكن من القيام بعملية برية ضدَّ قطاع غزة، وهو تطور نوعي للقدرات الردعية الصاروخية للفصائل.